وقدرته وعدله وحكمته، وهي كلها ذريعة لمعرفته وهي أفضل لقاءه، ومن ثم لقاء الجزاء يوم الجزاء، فذلك الرفع الرفيع، والتسخير المنيع، والتدبير والتفصيل لكتاب التدوين والتكوين الوسيع، كلها توحي بعودة للخلق إلى الخالق فإنه من كمال التقدير الحكيم، ولولاها لكان تطويلاً بلا طائل، وتفصيلاً دون حاصل! «فنظرت العين إلى خلق متصل بعضه ببعض ودلها القلب على أن لذلك خالقاً وذلك أنه فكر حيث دلته العين على أن ما عاينت من عظم السماء وارتفاعها في الهواء بغير عمد ولا دعامة تمسكها، وإنها لا تتأخر فتنكشط ولا تتقدم فتزول، ولا تهبط مرة فتدنو ولا ترتفع فلا ترى»[١] والقادر على هذا الخلق العظيم الحكيم إبداعاً أقدر على إعادته مرة أخرى ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٢]!.

ثم من السماء البعيدة المدى، القريبة لهذه الذكرى، إلى الأرض التي نعيشها ونمشي على مناكبها، هبوطاً للخط التصويري الهائل من السماء إلى الأرض، عرضاً للوحتها العريضة الأولى حين أكملها وبناها كما السماء بناها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾:

وهنا يرسم مدّ الأرض بعد خلقها كلمسة أولى لهذه اللوحة الفسيحة لساكنيها، ومن ثم خط الرواسي وخدود الأنهار بخطوطها، ثم الثمرات الناتجة عن ازدواجية الخطين، وامتزاجهما تلو بعض وزوجية الثمرات وإغشاء الليل النهار في سباقهما على مدّ الآفاق ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

(١) نور الثقلين ٢: ٤٨١ عن كتاب الإهليلجة قال الصادق عليه السلام...
(٢) سورة ق، الآية: ١٥.

وللأرض مدان اثنان، مدّ اوّل لإحيائها كما هنا وفي أضرابها: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[١] ﴿. . . وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[٢].

ومدٌّ ثان لإماتتها: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾[٣] وأين مد من مدّ تعميراً وتدميراً؟.

ولأن المدّ ليس إلّا عن انقباض فلتكن الأرض قبل مدّها منقبضة لا تحنّ لجعل جبال ورواسي أو إلقاءها عليها، فضلاً عن جعل الأنهار والثمرات، فبمدها قرّت فغرّت لقرارة الحياة عليها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾[٤] وذلك هو ذلّها بعد شماسها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[٥] وفي ذلك كفاتها: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾[٦].

ولأن الأرض كروية فمدها هو بسطها في حجمها، وعلّه على أثر حركاتها الدورانية حين ذوبانها، وقانون الفرار عن المركز يحكم بذلك الانبساط في جوانبها، فانجماد سطحها، وانبثاق أقسام منه هي أثقل من فوقها، وهي جبالها الراسية في متن أديمها وأعماقها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾!

ومن خلفيات جعل الرواسي جعل الأنهار حيث يدخر فيها من ثلج

(١) سورة الحجر، الآية: ١٩.
(٢) سورة ق، الآية: ٧.
(٣) سورة الإنشقاق، الآيتان: ٣، ٤.
(٤) سورة غافر، الآية: ٦٤.
(٥) سورة الملك، الآية: ١٥.
(٦) سورة المرسلات، الآيتان: ٢٥-٢٧.

السماء وبردها وماءها خلالها، فتشق من أطرافها وأكنافها أنهار يجري ماءها فيها، أم تنبع نبعات في أكنافها فتجري أنهاراً صغاراً وكباراً.

فجعل الجبال يتبنى مد الأرض كما مُدّت، وجعل الأنهار يتبنى جعل الجبال، وجعل الثمرات يتبنى جعل الأنهار لأرض مستعدة للإثمار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾!

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ تستغرق كل ما بالإمكان الراجح من مختلف الأثمار، فكل الثمرات الممكنة الكينونة، الراجحة في إمكانيتها، مجعولة في هذه الأرض، وعلّ «من» قبل ﴿كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ تشير إلى هذه المباعضة الراجحة وكما في أضرابها: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[2] ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]: ذلك وكما الجنة أيضاً كذلك: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾[4] فما كل ثمرة بالإمكان خلقها تصلح لخلقها في الأولى أو الأخرى، إلّا ما فيها رحمة راجحة.

وترى ما هما ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ والزوجان هما اثنان دون زيادة ولا نقصان؟ الزوج هو الفرد الذي له قرين، فكل زوج للآخر كما الآخر، وهو القرينان معاً، فلكي يدل على المعنى الأوّل: القرينين - قيدهما باثنين لكيلا يعنيا الأربع في المعنى الآخر، فمن الأوّل ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[5] ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾[6].

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢.
(٣) سورة النحل، الآية: ١١.
(٤) سورة محمد، الآية: ١٥.
(٥) سورة النساء، الآية: ١.
(٦) سورة النجم، الآية: ٤٥.

ولأن الثمرات أزواج وأقران لا - فقط - زوجين، فقد يعنيان الذكر والأنثى، ولا تعني الثمرات - فقط - الناضجات حتى يقال: إن زوجية الذكورة والأنوثة إنما هي في زهراتها دون نفس الثمرات المخلّفة منها، حيث الثمرات هي ناتجات نابتات عن الأرض بأنهارها، منذ زهراتها إلى ناضجاتها.

فكل النابتات تحمل في ذواتها زوجين اثنين، فتضم أعضاء الذكورة وأعضاء الأنوثة مجتمعة في زهرة واحدة، أو متفرقة في العود، فهي لا يتولد ثمارها وحبّها إلّا بين زوجين اثنين، كما والبعض منها - كذلك - زوجان اثنان.

عضو الذكر قد يكون عشيراً لعضو الأنثى في شجرة واحدة كالأغلبية الساحقة من الأشجار، وأخرى يقتسم العضوان بين شجرة وأخرى كما النخل وفي الواحدة أيضاً قد يجتمعان في زهرة واحدة كشجرة القطن، أم في زهرتين كالقرع، وذلك مما كشف العلم عنه النقاب بعد قرون عدة من نزول القرآن ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾! ومن ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ في الثمرات: الحلو والحامض، الرطب واليابس، الحار والبارد، الصيفي والشتوي أما ذا من زوجيات، وقد تجد في شجرة واحدة ثمرة ذات زوجين أم أزواج من ألوان وطعوم و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾! ثم ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ لمحة لامعة إلى كروية الأرض ودورانها، فذلك الإغشاء دليل كونهما مع بعض، فليست الأرض - إذاً - مسطحة ذات أفق واحد ليل كلها ثم نهار كلها، بل هي ذات أفاق في إشراقة الشمس عليها من مشرقها إلى مغربها، ففي كل انتقالة للأرض حول نفسها يغشي سرادق الليل وجه النهار: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾[1]: سريعاً جسيساً، فغشي الليل النهار في

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

طلبه السريع دليل على سرعة الحركة الارضية وتبادل آفاقها في إشراقة الشمس عليها، فقبل أفق الشمس ليل وبعده، والليل الخلفي لها يغشي نهارها الذي تنتقل عنه، كما والليل الآتي يغشاه النهار الذي ياتي، وآيته: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾[1] كما فصلناها تفصيلاً.

فلولا كروية الأرض لم يكن ليل ونهار مع بعض، ولولا حراكها حول نفسها لم يطلب الليل النهار حثيثاً، ومهما لم تكن كروية الأرض ودورانها معروفاً حين نزول القرآن وحتى ردح بعيد بعده، بل كان خلاف الحس والرأي العام، ولكنما التفكر في حالات الأرض يدلنا على ما يخفى منها فـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

إن في مدّ الأرض وجعل الرواسي والأنهار فيها، وجعل الزوجين من كل الثمرات فيها، وأغشاء الليل النهار، إن في ذلك المربع الربيع ﴿لَآيَاتٍ﴾ عدة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آيات العلم والقدرة والحكمة والرحمة الواسعة!.

فعلى مدّ الزمن وتمديد الأفكار زمناً بعد زمن تظهر آيات تلو آيات من هذا الكون البارع البديع لقوم يتفكرون، فيزدادوا على ضوءها معرفة برب العالمين، حيث العلم في توسّعه الدائب هو من خدام الإيمان لو لم يخلد إلى الأرض اتباعاً للأهواء.

ولنقف هنا وقفة متأملة متعملة أمام تلك التقابلات الفنية في ذلك المشهد الرائع البديع، بين مدّ الأرض والرواسي والأنهار والزوجين من كل الثمرات وتلاحق الليل والنهار في إغشاء بطلب حثيث، من ثم إلى قطع الأرض:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ

(١) سورة الزمر، الآية: ٥.

صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾:

أرض واحدة هي ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ على كونها قطعة ورقعة واحدة فما هو رمز الكثرة المتجاورة؟

لأنها حسب الحالات والأثرات ليست واحدة، فمنها السبخة النكدة، ومنها الجدبة المقفرة، ومنها صخرة صلدة، ومنها رخوة لينة، ومن ثم هي بين عامرة وغامرة، ريانة وعطشانة، حية مزروعة ومهملة ميتة أمّاهيه، وكلها أرض واحدة، تقابلات فنية في لوحة واحدة بقطع متجاورات، فليكن وراءها تصميمة قاصدة واحدة حيث الاختلاف بذلك النسق المنضد المنظم دليل الإرادة الوحيدة، غير الكثيرة ولا الوهيدة.

هذه إجمالة جميلة عن هذه الأرض وإلى تفصيلات هي من خلفيات مختلف القطع بطباعها المختلفة: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ فالأعناب والنخيل يمثّلان كل الأشجار المثمرة لأنهما أهمهما نفعاً، والزرع يشمل كل ما يزرع، وهذه الثلاث بين ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ مع أن الكل ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ ثم ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ حيث استعمال العقل في مختلف هذه المظاهر على وحدة الأرض والماء دليل التصميم الهادف الوحيد، لولا ذلك فلماذا الاختلاف وهو لا يأتي إلّا عن مختلف، والماء واحد والأرض واحدة، والبذر الواحد يأتي بمختلف الأثمار لوناً وطعماً وحجماً!.

و﴿صِنْوَانٌ﴾ مثنى وجمع، واحده «صنو» وهو المماثل، وهو الغصن الخارج عن أصل الشجرة، فالصنوان هي الأمثال النابتة على أصل مشترك، وغير صنوان خلافها وهي من أصول عدة، فمن الصنوان مختلف الأعضاء، بين خضراء وحمراء وصفراء من شجرة واحدة، فترى تمرات مختلفة حجماً

وطعماً ولوناً في نخلة واحدة، وعنبات حلوة وحامضة، بين خضراء وحمراء وصفراء من شجرة واحدة وارض واحدة وماء واحد، كما نرى متماثلات ومختلفات من أصول عدّة، فمن هذا الذي يجعلها مختلفة صنوان، أم متوحدة وغير صنوان إلّا الرحمن، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟

وهكذا تكون الثمرات في أنسال الإنسان ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ وكما يروى عن النبي ﷺ قوله: «يا علي الناس من شجرتين وأنا وأنت يا علي من شجرة واحدة ثم قرأ الآية»(١) قوله ﷺ «إن عم الرجل صنو أبيه»(٢).

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ صنواناً وغير صنوان، فقد نرى تفاحات من شجرة واحدة مختلفة الطعوم مفضلة بعضها على بعض في الأكل حلاوة وحموضة أمّاهيه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أرض واحدة وماء واحد وشجرة واحدة والثمرة مختلفة، أترى هذه صدفة عمياء أم تصميمة قاصدة لئلاء.

لسنا نقول أن ليست هناك علل طبيعية تؤثر هذه التأثيرات، ولكنها معلّلة بإرادة الله الواحد القهار، لو كانت هي الطبيعة وحدها كانت أثراتها على نسق واحد دونما اختلاف، ولا سيما في الصنوان، فسبحان العزيز المنان!.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾:

(١) الدر المنثور ٤: ٤٤ - أخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي وابن مردوية عن جابر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا علي.. ورواه ابن شهر آشوب عن الخركوشي في شرف المصطفى والثعلبي في الكشف والبيان والفضل بن شاذان في الأمالي واللفظ له بإسنادهم عن جابر بن عبد الله ورواه النطنزي في الخصائص عن سلمان عنه ﷺ.

(٢) المصدر أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن مجاهد أن النبي ﷺ قال: لا تؤذوني في العباس فإنه بقية آبائي وأن عم الرجل صنو أبيه:

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا رسول الهدى أنت ومن تبعك بإحسان وكل من ألقى السمع وهو شهيد ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من أمر يعجب ويحير العقول من حمقه في عمقه ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقد كانوا تراباً ثم نطفة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[١].

والخلق الجديد أهون من الخلق القديم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٢] فكيف وهم معترفون بالخلق الأول، عارفون أن الثاني هو أهون، يستنكرون خلقهم الجديد وهو أحرى وأحق من الأول، حيث الأول قضية رحمة الله الراجحة، والثاني قضية رحمته الواجبة وعدله، ضرورة الجزاء يوم الجزاء، فـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ كأن لا سواهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أغلال الحيونة والشهوة، أغلال الجهل والجهالة، أغلال العناد والمتاهة، وأغلال الإخلاد إلى أرض المادة.

وليست «على أعناقهم» حتى يمكن وضعها عنها، وإنما ﴿فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ فهي مغلولة في أصل ذواتها وأعماقها بما كسبت أيديهم، وأن الله ليس بظلام للعبيد، ولأنهم في ذواتهم نيران مسعّرة فـ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

فلو كان الخلق الجديد مستحيلاً لأنه من التراب، فأحرى بالخلق القديم إحالة! ولو كانت الاستحالة في الخلق الجديد لتمزق تراب البدن وتفرقه في سائر الأبدان أم أيّ مكان، فكذلك النطفة الجرثومية هي مأخوذة من ذرات في سائر البدن والأبدان: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ

(١) سورة الحج، الآية: ٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[1] ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾[2].

إن أصحاب الأغلال هنا، هم أصحاب الأغلال هناك، والخالدون في نيران الشهوات والضلالات هنا، هم خالدون في النار هناك ولا يظلمون نقيرا، فإنما طبق عن طبق، فأغلال عن أغلال، وخلود عن خلود.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾:

هؤلاء الحماقى الطغاة ليسوا ليتذكروا بأيّة ذكرى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ استعجالاً بالعذاب: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ... يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3]:

ولم يستعجلونك بالسيئة وهناك الحسنة أحرى أن يستعجل بها؟ إنما ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ...﴾[4] فما استعجالهم إلّا تحدياً وإبطالاً لدعوة الحق استغلالاً له فاستقلالاً ثم استغفالاً للمستضعفين.

والسيئة المستعجل بها قبل الحسنة هي العقوبة التي تهدّدوا بها يوم الدنيا والأخرى وهم ناكروهما، فالأخرى لكفرهم بها، والأولى لنكراهم الوحي وتوحيد الربوبية.

إنهم هكذا يستعجلون ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ والمثلة نقمة

(١) سورة يس، الآيتان: ٧٨، ٧٩.
(٢) سورة السجدة، الآيتان: ١٠، ١١.
(٣) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥٣، ٥٤
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٨.

تنزل بالإنسان فتجعل مثالاً يرتدع به غيره فهي كالنكال، والمثلاث التي خلت هي أمثال لما تهددهم من عقوبات الدنيا والآخرة، حيث الأولى تشهد للأخرى، كما تشهد لنظيرتها في الأولى لأنها كلها تشهد لصدق الوعد والوعد الصدق.

ألا «واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلاث بسوء الأفعال وذميم الأعمال فتذكروا في الخير والشر أحوالهم واحذروا أن تكونوا أمثالهم»(١). ألا «فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ووقايعه ومثلاته واتعظوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم».

أو لا تكفي هذه المثلاث التي خلت عبرة لصدق الرسالات، وليصدقوا أنباءها لعقوبات هنا، وفي الآخرة أشد وأنكى ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾(٢).

ألا فلينظروا إلى مصارع الغابرين حيث استعجلوا العذاب المهين فأصابهم حيناً بعد حين وتركهم مثلة يعتبر بها وأمثولة للكافرين، ثم لينظروا إلى رحمة الله الواسعة كيف يعد عباده على ظلمهم: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ فالناس دون «المؤمنين» و﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ دون «التائبين» يدلاننا على سعة الرحمة المغفرة كأصل بين العباد، اللهم إلّا للمعاندين المتعنتين، السائرين في ظلمهم وعتوّهم بكل عناد وعتاد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾! فمن يصر في الظلم ويلجّ ولا يبتغي باب الرحمة ليلج، مستغنياً عن رحمة الله، مستعجلاً بعذاب الله فـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والباقون هم في رحمة الله بشروط ودون شروط، ما دامت لا تمس من كرامة عدله.

---

(١) نور الثقلين ٢: ٢٨٢ ح ١٢ في كتاب التوحيد بإسناده عن أبو ذكوان قال سمعت إبراهيم العباسي يقول: كنا في مجلس الرضا عليه السلام فتذاكروا الكبائر وقول المعتزلة فيها أنها لا تغفر فقال الرضا عليه السلام قال أبو عبد الله عليه السلام قد نزل القرآن بخلاف قول المعتزلة قال الله جل جلاله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ...﴾ [الرّعد: ٦].

(٢) سورة غافر، الآية: ٣١.